المحاضرة الخامسة الرواية الرومانسية

الرومانسية: Romanticism / Romantisme حركة فنية أدبية فكرية، نشأت في فرنسا في أواخر القرن 18م ثمّ راجت في باقي بلدان أوروبا، وبخاصة إنجلترا وألمانيا وإسبانيا وبلغت ذروتها ما بين 1800- 1840. ولها أسماء أخرى هي الرومانتيكية أو الإبداعية.

كلمة الرومانسية مشتقّة من المصطلح الفرنسي رومو (بالفرنسية: roman) وتعني رواية، ظهر أوّل مرة مع جيمس بوزويل في منتصف القرن 18، مشيرا به إلى جزيرة كورسيكا. ويشار بهذا المصطلح إلى الأشياء والأماكن التي يعجز وصفها بالكلمات. ويرى البعض أنها مشتقة من لفظة (رومانيوس) التي أطلقت على اللغات والآداب المتفرعة عن اللغة اللاتينية القديمة، التي كانت تعد في القرون الوسطى لهجات للغة روما القديمة، ولم تعتبر لغات وآداباً فصيحة إلا ابتداء من عصر النهضة، حيث أخذت هذه اللغات مكانها لغات ثقافة وعلم وأدب. وقد اختارها الرومانسيون - وهي إحدى لهجات سويسرا - عنواناً لمذهبهم وحركتهم، وتعبيراً عن معارضتهم لسيطرة الثقافتين اليونانية واللاتينية على لغتهم وآدابهم القومية.

الرومانسية ردّ فعل عنيف ضدّ التيار الكلاسيكي الذي اكتسح أوروبا. بل رد فعل ضد الثورة الصناعية، وهي ثورة ضد الأرستقراطية والمعايير الاجتماعية والسياسية في عصر التنوير. يقول برتراند رسل: "إن بين الحركة الرومانتيكية وحركة التنوير علاقة تذكرنا في نواحٍ معينة بالنظرة الديونيزية* في مقابل الأبولونية. فجذورها ترجع إلى ذلك التصور المصطبغ بصبغة مثالية، والذي كوّنه عصر النهضة عن اليونان القديمة؛ وقد تطورت الحركة في فرنسا خلال القرن الثامن عشر بحيث أصبحت عبادة للانفعالات، وكانت في هذا التطور تمثل رد فعل على الموضوعية الباردة المترفعة لدى المفكرين العقليين"[1].

رفضت الرومانسية فكرة المحاكاة التي قال بها أرسطو والتي جعلها منبعا لكافة الفنون، ورأوا أنّ "الأدب عامّة ... ليس محاكاة للحياة والطبيعة بل خلقا وأداة الخلق ليس العقل ولا الملاحظة المباشرة بل الخيال المبتكر أو المؤلَّف بين العناصر المشتتة في الواقع الراهن أو في ذكريات المضي بل وفي إرهاصات المستقبل وآماله"[2] فالمصدر الحقيقي والأصيل للتجارب الجمالية – عندهم - هو قوة المشاعر والعواطف والخيال الجامح، مع التركيز على شتى العواطف الإنسانية مثل الخوف والرعب والهلع والألم. وهو ما أسهم في رفع شأن الفنون الشعبية والتقليدية إلى درجة اسمى، وجعلت منها فنوناً مرغوبة وجعلت من الخيال الفردي سلطة ناقدة حيث تحررت من أفكار المدارس العقلانية المثالية والكلاسيكية التي سعت إلى رفع شأن القرون الوسطى والإخلاص لها بفرضها قواعد وقيود على جميع أشكال الفنون.

وقد مرّت الرواية الرومانسية بمراحل

المرحلة الأولى: مرحلة ما قبل الرومانسية حيث مهد كتّاب هذا العصر للثورة على الكلاسيكية

---

* الديونيزيا نسبة إلى الإله الإغريقي ديونيزوس إله الخمر و الموسيقى. نسبة إلى ما هو حسي، جسدي، عفوي، و خصائص الجانب العاطفي و الحسي للطبيعة البشرية. و قد ربطت به الفنون اللا بصرية كالموسيقى. و عليه يعتقد نيتشه أن بدون الخصائص الأبولونية الفن الديونيزي ينقصه الشكل، الهيكل و البنية لخلق مقطوعة فنية متناغمة.

أبولو: إله الشمس، الحقيقة، النور، والمنطق، هو الاسم الأول للنصف الأول المرتب. هذا هو النصف الذي يغطي كل شيء منظم. النحت، وهو فن خالص، هو أكثر فن أبولوني. التفكير العقلاني، الذي يقوم على الهياكل المنطقية، هو أيضًا أبولوني. نظرًا لأن هذا الدافع يميل إلى وضع الأشياء في مكانها، فإنه يميل أيضًا إلى إضفاء الطابع الفردي على الأشخاص والأفكار وفصلهم بشكل واضح عن بعضهم البعض. الأحلام هي أكثر حالة أبولونية يمكننا تجربتها. إنه يبني هذا على فكرة أننا نفهم ما نراه عندما لا يكون الحلم حقيقيًا ، بل مجرد صورة.

[1] برتراند راسل، حكمة الغرب، تر: فؤاد زكريا، عالم المعرفة، 1983، ج2، ص 109

[2] محمد مندور، الأدب ومذاهبه، نهضة مصر للطباعة والنشر، د ط، د ت، ص 69

حيث أسهمت أفكار جان جاك روسو (1722- 1778) وفولتير (1649- 1778)في نشأة الرومانسية؛ فالأوّل صاحب فكرة (علينا أن نترك الطفل يدرج وحده في الطبيعة ليكتسب خبراته بنفسه)، وما كتابه (أميل) إلا شرح لهذا المبدأ. وقد دعا إلى العودة إلى الطبيعة والحياة الفطرية. وأمّا الثاني فنشر أدب شكسبير (1564- 1616) بعد اكتشافه له، وهو أدب متحرر من النظام الإغريقي في بناء المسرحيات، على الرغم من أنه عاش في عصر الكلاسيكية، فترجم مسرحيّاته وقد اختار منها ما يلائم طبعه في تجديد الأدب الفرنسي، ولا شك أن لهذا التجديد أثراً في اهتزاز قيمة المذهب الكلاسيكي بسبب إعجاب المتطلعين إلى التجديد والذين فضلوا مسرحياته على المسرحيات اليونانية التي كان يقلدها الكلاسيكيون. ويلاحظ تأثّر الأدباء الفرنسيّين الذين هجروا إلى البلدان المجاورة بأدب هذه الدول فولتير في إنجلترا مادام دي ستال في ألمانيا ....

مرحلة الكُتَّاب الرومانسيين الأوائل (1800م - 1825م):

نجد في هذه المرحلة شاتوبريان François-René de Chateaubriand 1768 - 1848) الذي أنتج في ظرف عامين رِوايَتَين هما: (آتالا، ورينيه) وهذا في 1801م - 1802م، وقد تَبنَّى فيهما نهجَ رِوايةِ (بول وفيرجيني) برناردين دى سان بيير Bernardin de Saint-Pierre 1737 — 1814 من حيث العناية بالوصف الطبيعي، ولكنه جدّد فيهما بالعناية بالوصف النفسيّ والتحليل العميق للعواطف و(مدام دوستايل Anne Louise Germaine de Staël-Holstein 1766 – 1817

فقد كتبت رواية (دلفين)، ورواية (كورين) الأولى عام 1802، والثانية عام 1807م حيث مهَّدتْ بهما السّبيل لروايات الكاتبة الرومانسية (جورج صاند George Sand 1804 - 1876)، ولها روايتان مع جول ساندیو هما (السيدة الأولى)، و (وردي وأبيض). لها وحدها (المستنقع المسحور) 1846 و(قارعو الناقوس) 1853 ولها روايات أخرى مثل (إنديانا) 1832 و (أحاديث جدتي) 1881

ومن الكتاب الأوائل المشهورين (بنجامان كونستان) Constant Benjamin المتوفى عام 1830م والذي تحتل رواياته مكانة مرموقة في الأدب الفرنسيّ، ومنها: (أدولف) عام 1816م التي حلّل فيها بذكاء مدهش وبأسلوب بعيد عن التكلف قضيّه التلاشي البطيء للحب البائس، مما جعلها تبدو دوماً جديدة وواقعية أكثر من أي رواية أخرى، بما في ذلك روايات (ستندال)، ومن الكتاب الأوائل أيضاً (شارل نوديه) المتوفى عام 1840م والذي كان يتميز بروح فعالة نشيطة ومعالجات جذابة.

مرحلة الرواية التاريخيّة (1826م - 1865م):

برز في هذه المرحلة مجموعة من المبدعين نذكر منهم:

الإنجليزي: (ولتر سكوت Walter Scott 1771 - 1832) الذي ألَّف في ظرف اثني عشرة سنة أي ما بين عامَي 1814م-1826م رِواياتٍ كثيرة أقبل عليها القراء بنهم فحققت له نجاحاً باهرا لما تميّزت به رواياته من جدّة فيها كثير من الإمتاع والتشويق، والعاطفة الجياشة وتشابك الأحداث، وكانَت حجر أساس بنيت عليه الرواية الغربيّة وبخاصّة التاريخيّة التي ميّزت ولتر سكوت من دون أن يحافظ على الأحداث التاريخيّة وشخصيا، وعلى يديه اكتملت ملامح الرواية الرومانسية، ممّا جعل الفنّ الروائيّ يزدهر في أنحاء أوربا، ومن رواياته: (ويفرلي Waverley) نشرها عام 1814 ينظر إليها بأنها أول رواية تاريخية في الأدب الغربي.

(إيفانهو Ivanhoe) نشرها 1819 وتسمّى أيضا الفارس الأسود، تناول فيها التاريخ الإنجليزي.

الطلسم The Talisman تتحدّث عن الحروب الصليبيّة بين ريتشارد قلب السد وصلاح الدين الأيوبي .
القرصان The Pirate تم نشرها 1822، مقتبسة تقريبا من حياة جون غاو الذي يظهر بشخص الكابتن كليفلاند.
الفرنسي ألفراد دو فينيي Alfred de Vigny 1797 – 1863 مبدع آخر لفت أنظار قراء الرواية التاريخيّة حيث أصدر روايته الخامس من مارس التي كتب في مقدّمتها عن نظريته في الرواية التاريخية التي يرى أنّ من حقّ المبدع التصرف في الأحداث وتغيير الوقائع التاريخية. فقد كان كثيرا ما يخترع شخصياته ولا يعتمد على الشخصيّات التاريخية المحدّدة . كما كتب في عام 1832م رواية (ستيلّو أو العفاريت الزُّرق) التي قرر فيها الانفصام ما بين المجتمع والشاعر أو الأديب بصورة عامة، ثم كتب روايات أخرى كان من أنضجها (عُود الخيزران).
كما نجد الفرنسي (فيكتور هوغو Victor Hugo 1802 - 1885) الذي بدا بمحاولات رآها النقاد دون المستوى وهذا قبل أن يبدع رائعته (نوتر دام دو باريس Notre-Dame de Paris) عام 1831م والتي تقوم حبكتها على الصراع العنيف بين أشخاص متضادّين، وتكمن أهمية هذه الرواية في الوصف الدقيق والخياليّ في إبداع الشخصيات وتصوير طبائعها، ويؤخذ عليه فيها أنها عسيرة ضعيفة التشويق، وفي عام 1862م أنهى (هوغو) رائعته الثانية (البؤساء) حيث أجاد تصوير لوحاتها الوصفية، أمَّا روايته (عُمَّال البحر) فيبدو فيها شاعراً يجيد الوصف أكثر منه روائياً، والحقيقة أن (هوغو) يعالج الرواية بشاعريّة فتراه يتدفق على سجيّته دون أن يعبأ بأي قيد شعري أو مراعاة لقواعد الفن الروائي. وصفه الشاعر الفرنسي الكبير ألفونس دي لامارتين (1790-1869) بعد ظهور رواية سيّدتنا الباريسيّة "شكسبير الرواية".